﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ سَاجِدٗا وَقَآئِمٗا يَحۡذَرُ ٱلۡأٓخِرَةَ وَيَرۡجُواْ رَحۡمَةَ رَبِّهِۦۗ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٩﴾ [الزمر: 9]

❁ مُناسَبَةُ الآيةِ لِما قبلَها:

ذِكـــرُ أحـــوال الصالحين إثر ذِكـــر أحـــوال المشركين

بعد أن ذكرت الآيات السّابقة بعض ما يتعلَّق بالمشركين، انتقلت لتتكلَّم عن بعض ما يتعلَّق بالمؤمنين الصالحين، على سبيل الموازنة والمقارنة بين المشركين والمؤمنين، فقال سبحانه فيهم: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ سَاجِدٗا وَقَآئِمٗا يَحۡذَرُ ٱلۡأٓخِرَةَ وَيَرۡجُواْ رَحۡمَةَ رَبِّهِۦۗ﴾؛ ليتبيَّن بذلك عدم استوائهما أبدًا.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿قَٰنِتٌ﴾: (قنت) أصلٌ يدلُّ على طاعة وخير في دين، والأصل فيه الطاعة، يقال: قنت يقنت قنوتًا، ثمَّ سُمّيت كلُّ استقامة في طريق الدّين قنوتًا، فقيل لطول القيام في الصَّلاة: قنوتٌ، وسُمّي السُّكوت في الصَّلاة والإقبال عليها: قنوتًا، قال الله تعالى: ﴿وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ٢٣٨﴾ [البقرة: 238][1]، فجماع القُنوتِ: لزومُ الطّاعة مع الانقياد والخضوع[2]، ومعنى ﴿قَٰنِتٌ﴾ قائمٌ بوظائف الطّاعات[3].

2) ﴿ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ﴾: (أنى) أصلٌ يدلُّ على ساعة من الزَّمان[4]، والآناء: جمع أنًى مِثْلُ أمعاءٍ ومَعًى، وأقْفاءٍ وقَفًى، وقيل: واحِدها أنًى

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قنت).
(2) الراغب، المفردات: (قنت).
(3) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 38.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أنى).

وإنًى، وقيل غير ذلك، وآناء اللَّيل: ساعاته...[1]، وهو كناية عن شدَّة العبادة[2]، واستفراغ الوقت والجهد فيها.

3) ﴿وَقَآئِمًا﴾: (قوم) أصلٌ يدلُّ على انتصاب إلى أعلى مع اهتمام وعزم ... يقال: قام قيامًا؛ إذا انتصب[3]، ومعنى ﴿وَقَآئِمًا﴾ هنا، أي: انتصب للصَّلاة في اللَّيل عن اختيار[4].

4) ﴿يَحۡذَرُ﴾: (حذر) أصلٌ يدلُّ على التَّحَرُّز والتَّيقُّظ، يُقالُ: حَذِرَ يَحْذَرُ حَذَرًا، ورَجل حَذِر وحَذور وحِذْريان: مُتَيَقِّظٌ مُتَحَرِّزٌ[5]، والحَذَر: احتراز من مخيف، ومنه قوله تعالى: ﴿خُذُواْ حِذۡرَكُمۡ﴾ [النساء: 71]، أي: ما فيه الحذر من السِّلاح وغيره[6]، ومعنى قوله تعالى: ﴿يَحۡذَرُ ٱلۡأٓخِرَةَ﴾، أي: يحترز من عذابها بفعل الطّاعات وترك المنهيّات.

5) ﴿يَسۡتَوِي﴾: (سوي) أصلٌ يَدُلُّ على استِقامةٍ واعتِدالٍ بَينَ شَيئَين، يُقالُ: هذا لا يُساوي كذا، أي: لا يُعادِلُهُ، وفُلانٌ وفُلانٌ على سويَّةٍ من هذا الأمر، أي: سَواءٍ[7]، والتَّسْوِيَةُ: ضِدُّ المُفاضَلَةِ، وتأتي بمعنى العَدْلِ والإنصافِ، فيُقال: سَوَّيْتُ بين الشَّيئَين؛ إذا عَدَلت بَينَهُما[8]، وهي أيضًا: تَقويمُ الشَّيءِ وتَعديلُهُ، تَقولُ: سَوَّيْتُ الشَّيءَ، فاستوى، أي: قَوَّمتُهُ فاستَقامَ[9]، ومعنى المساواة في الآية: جعْلُ الأشياء متساوية، والمقصود هنا: استنكار جعل الأشياء المتضادَّة متساوية.

6) ﴿ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾: أصل اللُّبِّ: جوف شيء أو وسطه المتمكِّن، ويلزم من ذلك نقاؤه وخلوصه؛ لكونه محوطًا محفوظًا[10]، والألباب جمع لُبٍّ، وأصل اللُّبِّ: الخُلوصُ والجَوْدةُ، والشَّيء المُنتقَى[11]، واللُّبُّ من كلِّ شيء هو الخالص منه، وسُمّي العقل لُبًّا؛ لكونه خالص ما في الإنسان من قوَّةٍ كاللُّباب من الشَّيء[12].

(1) السجستاني، غريب القرآن، ص: 69، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 346، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (أنو - أني).
(2) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 3/ 414.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قوم).
(4) الراغب، المفردات: (قوم).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حذر).
(6) الراغب، المفردات: (حذر).
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سوي).
(8) الأزهري، تهذيب اللغة: (سوا).
(9) الجوهري، الصحاح: (عدل).
(10) جبل، المعجم الاشتقاقي: (لبب - لبلب).
(11) السجستاني، غريب القرآن، ص: 51، وابن فارس، مقاييس اللغة: (لب).
(12) الراغب، المفردات، ص: 733.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

لا يستوي مشرك جاحد، ومؤمن قانت

تقرِّر الآية الكريمة نفيَ المُساواةِ بينَ هذا الإنسانِ المُشرِكِ الذي لا يلتجئ إلى ربِّه إلّا عند وقوع الضُّرِّ، ثمَّ إذا كشف عنه ضرَّه؛ عاد إلى الشُّركاء والأنداد، وبينَ الإنسانِ الملازِمِ لطاعةِ رَبِّه: فذكرت: أن الَّذي هو مُطيعٌ لِرَبِّه قائِمٌ ساعاتِ اللَّيلِ لعبادتِه ساجِدًا وقائِمًا، يحترز من عذاب الآخِرةِ بالاجتهاد في الطّاعة، ويرجو رحمةَ رَبِّه طمعًا فيها بعد أن قدَّم بين يديها إيمانَهُ بربِّه وقنوته له: أفَيَسْتوي هو ومَن يجعل للّه تعالى شُرَكاءَ في العبادةِ؟ قُل - يا رسولنا - لمن يجهلون هذا الفرق، أو يزعمون أنَّهم كذلك: هل يَستوي العُلَماءُ العامِلونَ بعِلمِهم، القانِتونَ للّه، والذين يَعلَمونَ انفراد اللّه بالألوهيَّة، ولا يَعمَلونَ بمقتضى علمهم، فيدخل الإيمان في قلوبهم؟ كلّا، لا يَستوونَ، إنَّما يتذكَّرُ أصحابُ العُقولِ السَّليمةِ[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

نكتةُ فصل الآية عن سابقتها:

احتمالها لنوعي الاستئناف والعطف

قوله: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ﴾ جملة استئنافيَّة استئنافًا نحويًّا[2]، سيقت لتقرير عدم مساواة المشرك الجاحد لربِّه الكفور لنعمه، بالمؤمن القانت العابد لربِّه الشَّكور لنعمه، ولذلك فُصلت عن سابقتها على الاستئناف الابتدائي، ويمكن أن يكون الاستئناف بيانيًّا؛ تعليلًا للوعيد السابق في قوله: ﴿إِنَّكَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾، كأنَّ سائلًا سأل: لماذا يدخل هذا النار؟ فتكون الإجابة: كما لا يستوي الجاحد الكافر مع القانت المؤمن في الفعل، فكذلك لا يستوي معه في الجزاء، ويمكن أيضًا أن تكون الجملة من تمام الكلام المأمورِ به السّابق[3]، أي: قل للجاحد الكافر تمتَّع بكفرك قليلًا، وقل له: أأنت

(1) مجموعة من المؤلفين، موسوعة التفسير المحرر: 29/ 95.
(2) الخطيب وآخران، التفصيل: 23/ 359، والمطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 3/ 413.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 245.

خير أم من هو قانت؟ فيكون ما بعده: ﴿هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ﴾، على اللَّفِّ والنَّشر غير المرتَّب (المشوش)، أو المعنى: وقل له أيضًا: أمّن هو قانت خير أم الجاحد الكافر؟ فيكون ما بعده: ﴿هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ﴾، على اللَّفِّ والنَّشر المرتَّب، وبالجملة ففي هذا إشارة إلى أنَّه لايستوي الجاحد الكافر مع من هو قانت.

الغرضُ من التَّعبير بقوله: ﴿أَمَّنۡ﴾:

احتمالُ الكلمة الواحدة أكثر من معنى

كلمة ﴿أَمَّنۡ﴾ مركَّبة من: (أم)، و(مَن)، ثم صارتا كالكلمة الواحدة (أمّن)، بعد إدغام الميم في الميم، وفي (أم) احتمالان:

الأوَّل: أن تكون متَّصلة - أي: غير منقطعة - ومعادلها محذوف قبلها ثقةً بدلالة مساقِ الكلام عليه، كأنَّه قيل له تأكيدًا للتَّهديد وتهكُّمًا به: أأنت أحسنُ حالًا ومآلًا أم من هو قائمٌ بمواجب الطّاعاتِ، ودائم على أداء وظائف العبادات في ساعاتِ اللَّيل حالتَي السَّرّاءِ والضَّرّاءِ، لا عند مساس الضُّرِّ فقط كدأبك؟ أو التَّقدير: أهذا الكافر خير أم من هو قانت؟ أو يكون معادلها محذوفًا بعدها بدلالة ما بعده، أي: أمَّن هو قانت... خير أم أنت أيُّها الجاحد الكافر؟ على خطاب الكافر؛ ليكون متَّسقًا مع ما قبله في الخطاب: ﴿قُلۡ تَمَتَّعۡ بِكُفۡرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾، أو: أهذا - الذي يدعو الله مرَّةً، ويدعو غيره ممَّن يجعله له ندًّا مرَّةً أخرى - أسدُّ طريقةً وأقوم قيلًا؟ ويكون في هذا التَّقدير التفاتٌ، أمَّن هو قانت خير أم أنت أيُّها الجاحد الكافر؟ وعلى كلا التقديرين يكون التَّرتيب وفق ما بعده في قوله: ﴿قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ﴾.

والثاني: أن تكون منقطعة بمعنى (بل) والهمزة، والتَّقدير: بل

أمَن هو قانت صفته كذا، كمن ليس كذلك[1]؟ والإضراب بـ (بل) حينَئِذٍ هو للانتقال من التَّهديدِ إلى التَّبكيت بتكليف الجواب الملجِئ إلى الاعترافِ بما بينهما من التَّباينِ البيِّن، ويمكن أن تكون (أم) منقطعة بمعنى (بل) وحدها على قول النَّحّاس، و(مَن) بمَعنى الَّذي، والتَّقديرُ: بَلِ الَّذي هو قانِتٌ مِن أصحابِ الجَنَّةِ، يَدُلُّ على ذلك مُقابِلُهُ السّابق: ﴿إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾[2].

بلاغةُ القراءات المتواترة في قوله: ﴿أَمَّنْ﴾:

الـجـمـعُ بين الاستـفـهـام والإضـــــراب والتَّقرير والنِّداء

في قوله: ﴿أَمَّنْ﴾ قراءتان، قرأ أبو عمرو وابن عامر وعاصم والكسائي ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ﴾ مشدَّدة الميم، وقرأ نافع وابن كثير وحمزة: (أمَن هو قانت) خفيفة الميم.

أمّا على قراءة التشديد ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ﴾؛ فيمكن أن تكون (أم) متَّصلة أو منقطعة بمعنى بل والهمزة، والجملة التي عادلت (أم) على الوجهين قد حُذفت قبلها أو بعدها - كما مضى بيانه - والمعنى: أيكون، أو بل أيكون الجاحد الكافر بربِّه خير أم من هو قانت؟ أو: أيكون، أو بل أيكون القانت خير أم أنت أيُّها الجاحد الكافر، و(مَن) موصولة بمعنى (الذي)، وليست باستفهام، ودلَّ على الجملة المحذوفة المعادلة لـ (أم) ما جاء بعدها من قوله: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾، ودلَّ عليها أيضًا ما جاء قبلها من قوله: ﴿قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾، ويمكن أن تكون (أم) منقطعة بمعنى (بل) وحدها، و(مَن) بمَعنى الَّذي، والتَّقديرُ: بَلِ الَّذي هو قانِتٌ مِن أصحابِ الجَنَّةِ، كما سبق بيانه أيضًا.

وأمّا على قراءة التَّخفيف ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ﴾؛ فقد خُرِّجت على أنَّ همزة الاستفهام التَّقريري قد دخلت على (مَنْ)، والمقابل محذوف،

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 189، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 245.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 189.

أي: الذي هو قانت خير أم أنت أيُّها الكافر؟ أو المعنى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ﴾ كمن هو بخلاف هذا الوصف؟.

ويمكن أن تكونَ الهمزةُ للنِّداءِ و(مَنْ) منادى، ويكون المنادى هو النَّبيَّ ﷺ، وكلَّ من يصلح له النِّداء ممَّن كان على سنَّته من بعده، فكمل هذا الوصف فيه، ويكون النَّبيُّ هو المأمور بقولِه: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ﴾، كأنَّه قال: يا مَنْ هو قانِتٌ ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ﴾[1].

بلاغةُ الاستفهام في نوعه وغرضه:

الجمعُ بين النَّفي والإنكار والتَّقرير والتَّهكُّم في نفي المساواة بين الكافر والقانت

غرض الاستفهام في قوله: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ﴾ هو نفي المساواة بين الكافر والقانت على ما مضى بيانه من تقدير المعادل المحذوف، أمّا نوع الاستفهام المضمَّن في الهمزة؛ فهو: استفهام إنكاري قُصِد به النَّفي، ولمّا كان في الإنكار معنى النَّفي؛ أفاد التَّقرير؛ لأنَّ نفي النَّفي إثبات، والاستِفهامُ مُستَعمَلٌ في التَّهَكُّم أيضًا لِظُهورِ أنَّهُ لا تَتَلاقى تلك الصِّفاتُ الأربَعُ مع صِفَةِ جَعْلِهِ للّه أندادًا[2].

دلالةُ التَّعبير بالاسم الموصول (مَنْ):

الدَّلالة على كثرة الموصوفين بهذا الوصف من جهة وانفرادهم به من جهة أخرى

(مَنْ) اسم موصول مشترك، لفظُه لفظُ المفردِ، ومعناه معنى الجمع، فقُصِدَ بلفظه انفراد من يتَّصف بهذه الصِّفات عن عموم أهل الإيمان وتميُّزه عنهم، لكمال الطاعة فيهم بالقنوت، وليس يعني أنَّ مثل هؤلاء آحاد قلائل، بل هم كثير في أنفسهم، على مرِّ الزَّمان بما دلَّ عليه معنى (مَنْ)، لكنَّهم مع كثرتهم قليل بالنِّسبة لغيرهم.

---

(1) الفارسي، الحجة: 6/ 93، وأبو حيان، البحر المحيط: 9/ 189، والسمين، الدر المصون: 9/ 415، والآلوسي، روح المعاني: 12/ 236، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 345.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 236، والجمل، حاشية على الجلالين: 6/ 418، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 345، والمطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 3/ 412.

نكتة التَّعبير بضمير المفرد الغائب ﴿هُوَ﴾:

دخـولُ القانت في زمـرة أهـل الفضل ولو كان غـائـبًـا أو غير معروف

التَّعبيرُ بضمير المفرد الغائب ﴿هُوَ﴾ يشير إلى دخول القانت في زمرة أهل الفضل والتُّقى، وحصوله يوم القيامة على الدرجات العلا، ولو كان غائبًا وحيدًا غير معروف، وقول بعض المفسِّرين: إنَّه أريد بمَن هو قانت: رسول الله ﷺ، على أنَّ الضَّمير ﴿هُوَ﴾ يعود إلى من أُمر بالقول في قوله تعالى: ﴿قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا﴾، فالجملة "من تمام الكلام المأمورِ به"[1]، وقيل: أريد بمن هو قانت أبو بكر، وقيل: عمّار بن ياسر، وقيل: صهيب، وقيل: أبو ذر، وقيل: ابن مسعود ﷺ جميعًا، ولا جرم أنَّ هؤلاء المعدودين هم مِن أحقِّ مَن تصدُق عليه هذه الصِّفة الَّتي في تلك الصِّلة، فهي شاملة لهم ولغيرهم ممَّن تحقَّقت فيهم؛ لأنَّ محمل الموصول في الآية على تعميم كلِّ مَن يصدق عليه معنى الصِّلة[2]، ودخوله ﷺ في هذا العموم دخول أوَّلي، فلا أحد يسبقه ﷺ في هذا الباب أبدًا.

فائدةُ إفراد المبتدأ والخبر في جملة الصِّلة ﴿هُوَ قَنِتٌ﴾:

أهـل الـولايـة مـنـفـردون بعظيم الطّاعات

جاء المبتدأ والخبر في جملة الصِّلة مفردين ﴿أَمَّنْ هُوَ قَنِتٌ﴾؛ لأنَّ القنوت أعظمُ ما يكون؛ إذا كان المؤمن القانت بمعزل عن النّاس، منفردًا في قنوته، لا يعلم أحدٌ عنه شيئًا، وذلك أجمع للقلب، وأقرب إلى الإخلاص.

دلالةُ التَّعبير بالقنوت في الآية:

الـدَّلالـة على دوام الطّاعة ولزومها

القُنوتُ: لزوم الطّاعة مع الخضوع[3]، أو طول الطّاعة مع الخشوع والطُّمأنينة، وعليه فمعنى ﴿قَنِتٌ﴾، أي: ملازم للطاعة والعبادة مداوم عليها لا يفارقها، ولا تفارقه، مع خضوع لله ﷻ وخشوع، وإن

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 245.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 437، 438.
(3) الراغب، المفردات: (قنت).

اختلف المفسِّرون في المراد بالقنوت في القرآن، أهو طول القيام، أم طول القراءة، أم طول الصَّمت، أم طول السُّكون والتَّطامن، أو طول الذُّلِّ والانكسار، فكلُّها داخلة في مضمون الطاعة والعبادة.

نكتةُ التَّعبير في القنوت بصيغة اسم الفاعل ﴿قَٰنِتٌ﴾:

قوَّة اتِّصاف الموصوف بالصِّفة وثبوتها فيه مع الدَّوام والاستمرار

أوثر التَّعبيرُ باسم الفاعل: ﴿قَٰنِتٌ﴾؛ للدَّلالة على قوَّة اتِّصاف الموصوف بالصِّفة وثبوتها فيه، مع الدَّوام والاستمرار، وللإشعار بأنَّ القنوت فيه ﷺ سجيَّة وطبع، وكذلك ينبغي أن يكون في كلِّ قانت، ولذلك كان التَّعبير باسم الفاعل أبلغَ من التَّعبير بالفعل الذي يدلُّ على التَّجدُّد والحدوث.

فائدة تنكير ﴿قَٰنِتٌ﴾:

التَّفخيم والتَّعظيم

قال تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ﴾، ولم يقل: أمَّن هو القانت، مع تنوين اسم الفاعل النَّكرة؛ للدَّلالة على تعظيم ذلك القانت وتفخيم أمره، كأنَّه قال: هو عظيم القنوت، عالِ القدر والمنزلة.

بلاغةُ التَّعبير بالجملة الاسميَّة في صلة الموصول:

الدَّلالة على الثبات والاستمرار

الأصل في الجملة الاسميَّة أنَّها تدلُّ على الاستمرار والدَّوام والثَّبات، فإيثارُ صلةِ الموصول بكونه جملة اسميَّةً دلالةٌ على ثبات هذا الوصف فيه، ودوامه واستمراره؛ لأنَّ الجملة الاسميَّة تدلُّ على وجود حدث غير مقترن بزمان، كأنَّ القنوت في صاحبه صفة ملازمة له لا تنفكُّ عنه انفكاك وجوده.

فائدة ذكر الظَّرفيَّة في ﴿ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ﴾:

قوله: ﴿ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ﴾ منصوب على الظرفيَّة لـ ﴿قَٰنِتٌ﴾، وفي تخصيص قنوته بساعات اللَّيل دلالةٌ على أنَّ قيام اللَّيل والعبادة فيه أفضلُ من قيام النَّهار والعبادة فيه[1]؛ لأنَّ اللَّيل أسترُ، فيكون

(1) شيخ زاده، حاشية على تفسير البيضاوي: 7/ 232.

أبعدَ عن الرّياء، ولأنَّ ظلمة اللَّيل تجمع الهمَّة، وتمنع البصر عن النَّظر إلى الأشياء، وإذا صار القلب فارغًا عن الاشتغال بالأحوال الخارجيَّة؛ رجع إلى المطلوب الأصلي، وهو الخشوع في الصَّلاة ومعرفة من يصلي له، أو: لأنَّ اللَّيل هو وقت النوم ومظنَّة الراحة، فيكون قيامه أشقَّ على النَّفس، فيكون الثَّواب فيه أكثر[1]، ويشعر بهذا المعنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡـًٔا وَأَقۡوَمُ قِيلًا ۝٦﴾ [المزمل: 6]، لكن تخصيص اللَّيل بالذِّكر لا يعني أنَّه المخصوص وحده بالعبادة، وأنَّه لا قنوت في النَّهار، بل هو دالٌّ بدلالة فحوى الخطاب على أنَّ هذا القانت لا يخلو من السُّجود والقيام آناء النَّهار أيضًا، كما يدلُّ له أيضًا قوله تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبۡحَا طَوِيلًا ۝٧﴾ [المزمل: 7]، وبذلك يتمُّ انطباق هذه الصِّلة على حال النَّبيِّ ﷺ[2].

اللَّيلُ أعون من النَّهار على الإخلاص في العبادة والتَّفرُّغ لها وعدم الانشغال عنها

نكتة إضافة ﴿ءَانَآءَ﴾ إلى ﴿ٱلَّيۡلِ﴾:

إضافةُ الجمع إلى المعرفة في ﴿ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ﴾ أفاد العموم، أي: قانتٌ في كلِّ ساعات اللَّيل، أي: إنَّ كلَّ ساعات اللَّيل مظنة للقنوت، ولمّا كانت (مَنْ) تفيد العموم أيضًا؛ أفاد تعلُّق اللَّفظ العام بالظَّرف العام تداخلَ كلٍّ منهما في الآخر، من باب: "مقابلة الجمع بالجمع تنتج القسمة آحادًا"، أي: إنَّ كلَّ قانت له ما يخصُّه من ساعات اللَّيل يكون فيها قانتًا، وأنَّ كلَّ ساعات اللَّيل لا تخلو من قانت لله تعالى، وأنَّ كلَّ ساعة من هذه السّاعات فيها من القانتين الجمُّ الغفير والعدد الكثير، وفي هذا إشارةٌ إلى تيسير الله ﷻ للناس حتى يكون اللَّيل كلُّه مجالًا للقانتين من صلاة المغرب إلى صلاة الفجر؛ ليختار كلُّ واحد من هذه السّاعات ما يناسب طبيعة عمله وعمره وصحَّته وغير ذلك.

شمولُ كلِّ ساعات اللَّيل للطاعة والعبادة وصلاحيتها لكلِّ النّاس

(1) الخازن، لباب التأويل: 4/ 52.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 346.

سرُّ مجيءِ (ال) التعريفيَّة في ﴿ٱلَّيۡلِ﴾:

إفادةُ لفظ اللَّيل معنى الجنس والاستغراق في وقت واحد

(ال) التَّعريفيَّة في ﴿ٱلَّيۡلِ﴾ قد تكون للجنس، والمقصود بـ ﴿ٱلَّيۡلِ﴾ على هذا جنسه ومطلقه، وليست ليالي بعينها، ولا يمنع هذا من كون بعض اللَّيالي أنشطَ مِن بعضها تبعًا لخصوصيّاتها ونفحاتها كليلة الجمعة وليالي رمضان، فإنَّ الدَّواعي فيها أقوى، والاستعداد لها أشدُّ وأنشط، وإلّا فإنَّه ﷺ كان يقوم كلَّ اللَّيالي بأمر القرآنِ له بذلك في قوله تعالى: ﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ۝٢ نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ﴾ [المزمل: 2 - 4]، وقوله: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةٗ لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا ۝٧٩﴾ [الإسراء: 79]، وقد تكون (ال) التعريفيَّة في ﴿ٱلَّيۡلِ﴾ للاستغراق، فتفيد العموم والشُّمول، وهو حينئذٍ يشمل، ويعمُّ الأجزاء؛ لأنَّ العموم حين يكون في المفرد يكون في أجزائه، مثل: كلُّ البيت واسعٌ، ويؤكِّد هذا أيضًا إضافة ﴿ءَانَآءَ﴾ إلى ﴿ٱلَّيۡلِ﴾ التي تفيد العموم في ﴿ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ﴾، أي: ساعات اللَّيل، التي هي أجزاؤه.

فائدةُ التَّعبير عن السُّجود والقيام باسم الفاعل ﴿سَاجِدٗا وَقَآئِمٗا﴾:

الدَّلالةُ على دوام الإخلاص بدوام السُّجود والقيام

عبَّرَ عن السُّجود والقيام باسم الفاعل ﴿سَاجِدٗا وَقَآئِمٗا﴾، دون الفعل المضارع مثلًا (يسجد ويقوم)؛ للإشارة إلى دوام إخلاصه في حال سجوده وقيامه، دون انقطاع أو فتور، الدّالِّ على دوام الإخلاص[1]، بخلاف الفعل المضارع الَّذي يدلُّ على التَّجدُّد والحدوث مع الاستمرار، والتَّجدُّد لا يكون إلّا مع انقطاع.

علَّةُ الاقتصار على السُّجود والقيام ﴿سَاجِدٗا وَقَآئِمٗا﴾:

كونهما أفضلَ أركان الصَّلاة في اللَّيل

أعظمُ أركانِ الصَّلاة وأفضلُها في الليل القيامُ والسُّجود، ولذلك جاءت السُّنَّة بالتطويل فيهما، وسُمّيتِ الصَّلاة في اللَّيل قيامًا (قيام اللَّيل)، وثمرة طول القراءة التي تكون في القيام إنَّما تكون في السُّجود، ولذلك قُدِّم على القيام في الآية، كما سيأتي بيانه.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 466.

غرضُ تقديم السُّجود على القيام:

السُّجود أليقُ بحال القانت، وأقرب حالات عبادة العبد من ربِّه

والسِّرُّ في تقديم السُّجود على القيام كون المقام مقام قنوتٍ وإخلاص، والإخلاصُ أقربُ مقرَّب إلى الله؛ لأنَّه تَجَرُّدٌ عن كلِّ ما سواه تعالى، والسُّجود أليق الأشياء بهذا الحال، ولذلك كان أقربَ مقرِّبٍ للعبد من ربِّه[1]، ولأنَّ السُّجود أفضل من القيام[2]، لحديث: «أقرب ما يكون العبدُ من ربِّه، وهو ساجدٌ»[3].

نكتةُ وقوع العطف بالواو في ﴿سَاجِدًا وَقَآئِمًا﴾ وترك العطف على ﴿قَٰنِتٌ﴾:

السُّجود والقيام ركنان في عبادة واحدة، والقنوت حال المخلص في هذه العبادة

الواو العاطفة هي للتشريك في الحكم بين المتعاطفين، ولذلك قال: ﴿سَاجِدًا وَقَآئِمًا﴾؛ لأنَّ الجمع بينهما في الحاليَّة مرادٌ؛ إذ يستحبُّ الطول فيهما في قيام اللَّيل، وهما أدخل في الإخلاص لدى القانتين، وللدَّلالة على تمكُّنه من الوصفين بالعطف[4]، ثم إنَّ كُلًّا منهما ملازمٌ للآخر في العبادة، فالسُّجود يأتي عقب القيام، وكذلك القيام أيضًا يأتي أثناء الصَّلاة وأداء الركعات من سجود، وفي سرِّ ترْكِ العطف على ﴿قَٰنِتٌ﴾؛ لأنَّ طول القيام والسُّجود عمل، والقنوت حال أهل الإخلاص عند أداء ذلك العمل، فليس من جنسهما حتى يُعطفا عليه، بل جاءا حالًا له، ولأنَّ القنوت مطلق العبادة، أو هو القيام بوظائف العبادات، فلم يكن مغايرًا للسُّجود والقيام، فلم يُعطفا عليه؛ إذ لا مساغ للعطف، فالذّات وصفتها كالشَّيء الواحد، بخلاف السُّجود والقيام، فإنَّهما وصفان متغايران؛ فلذا عُطِف أحدهما على الآخر، أي: بتنزيل تغاير الصِّفتين منزلة تغاير الذَّوات[5].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 466.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 236.
(3) صحيح مسلم، حديث رقم: (482).
(4) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 466.
(5) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 236، والقونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 16/ 488.

نكتة تنكير ﴿سَاجِدًا وَقَآئِمًا﴾:

التَّعظيم والتَّكثير

التَّنكير في ﴿سَاجِدًا وَقَآئِمًا﴾ يفيد التَّعظيم والتَّكثير، أي: هو ﷺ قانتٌ لله متقن لعبادته، كثيرُ السُّجود والقيام، وقد أخرج البخاريُّ بسنده عن عائشة ﵂: «أنَّ نبيَّ الله ﷺ كان يقوم من اللَّيل حتى تتفطَّر قدماه، فقالت عائشة: لِمَ تصنع هذا يا رسول الله، وقد غفر الله لك ما تقدَّم من ذنبك وما تأخَّر؟ قال: أفلا أحبُّ أن أكون عبدًا شكورًا»[1].

بلاغةُ الحذف في قوله: ﴿سَاجِدًا وَقَآئِمًا﴾:

الإيجاز بذكر الأهمِّ للدَّلالة على حذف المهمِّ

قوله تعالى: ﴿سَاجِدًا وَقَآئِمًا﴾ فيه حذْفُ كلمتين من جهتين، فالكلمتان هما الرُّكوع والقعود، من جهة دلالة السُّجود والقيام عليهما، فقوله: ﴿سَاجِدًا﴾، أي: وراكعًا، وقوله: ﴿وَقَآئِمًا﴾، أي: وقاعدًا، فالآيةُ من الاحتباك: ذَكَرَ السُّجودَ دليلًا على الرُّكوع، وذَكَرَ القيامَ دليلًا على القعود، والسِّرُّ في ذكر ما ذكر وترك ما ترك أنَّ السُّجود يدلُّ على العبادة، وقرْنُ القيامِ به دالٌّ على أنَّه قيام منه، فهو عبادة، ولذلك جاء بعده في ترتيب الآية، وذلك مع الإيذان بأنَّهما أعظم الأركان، فهو ندب إلى تطويلهما على الرُّكنين الآخرين؛ لأنَّ القعودَ إنَّما هو للرِّفق بالاستراحة، والرُّكوع إنَّما أريد به إخلاص الأركان للعبادة؛ لأنَّه لا يمكن عادة أن يكون لغيرها، وأمّا السُّجود؛ فيطرقه احتمال السُّقوط، والقيام والقعود ممّا جرت بهما العوائد، فلمّا ضمَّ إليهما الرُّكوع تمحُّضًا للخضوع بين يدي الملك العليم العزيز الرَّحيم[2].

بلاغةُ الطِّباق بين السُّجود والقيام:

في قوله: ﴿سَاجِدًا وَقَآئِمًا﴾ طباق الإيجاب، حيث قابل بين السُّجود

(1) صحيح البخاري حديث رقم: (4837).
(2) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 466، 467.

والقيام، فأبرز الجمال اللفظي، وكذلك القيمة المعنويَّة، فكلاهما من أحوال الصَّلاة ومظاهرها؛ لإبراز قيمة كلٍّ منهما في الصَّلاة نفسها وبمجموعها تتمُّ الصَّلاة، فكلٌّ منهما ركنٌ من أركانها لا تتمُّ الصَّلاة إلّا به حال الصِّحَّة والقدرة، وبالعِوض عنهما بما يدلُّ عليهما حال المرض والعذر.

في المقابلة بينهما تحسُّن لفظيٌّ ومعنويٌّ

نكتةُ الفصل والوصل في الآية:

لما كان الإنسان محلَّ الفتور والغفلة والنِّسيان، وكان ذلك في محلِّ الغفران، وكان لا يمكن صلاحه إلّا بالخوف من الملك الدَّيّان؛ فُصِلَ قوله: ﴿يَحۡذَرُ ٱلۡأٓخِرَةَ وَيَرۡجُواْ رَحۡمَةَ رَبِّهِۦۗ﴾ عمّا قبله على الاستئناف البيانيِّ علَّة لما قبله، وجوابًا عن سؤالٍ مقدَّرٍ، كأنَّه قيل: ما شأنُه يَقْنُتُ آناءَ اللَّيل، ويُتْعِبُ نفسَه، ويَكُدُّها؟ فقيل: لأنَّه ﴿يَحۡذَرُ ٱلۡأٓخِرَةَ وَيَرۡجُواْ رَحۡمَةَ رَبِّهِۦۗ﴾[1]، أي: يحذر بقنوته وسجوده وقيامه عذاب الآخرة، ويطمع في نوال رحمة ربِّه بدخول الجنَّة، فيكون بين الجملة المفصولة وما قبلها شبه كمال الاتِّصال، وأمّا سرُّ الوصل والعطف بالواو في ﴿وَيَرۡجُواْ رَحۡمَةَ رَبِّهِۦۗ﴾؛ فهو قصد الجمع والتَّشريك بينهما في الحكم والمعنى؛ لكونهما متلازمين، ويكون بين الجملتين الموصولتين (توسُّط بين الكمالين)؛ "لأنَّ الجملتين خبريَّتان لفظًا ومعنًى"[2].

بيانُ علَّة القنوت والرُّكوع والسُّجود، وأنَّ الرَّجاء لا ينفكُّ عن الخوف

نكتة التَّعبير بالفعل المضارع في قوله: ﴿يَحۡذَرُ﴾ و﴿وَيَرۡجُواْ﴾:

في اختيار صيغة المضارع في قوله: ﴿يَحۡذَرُ﴾ و﴿وَيَرۡجُواْ﴾ دلالة على أنَّه لابدَّ من وجود سبب قويٍّ دافع للمؤمن القانت المخلص يدفعه إلى المداومة على العمل الصالح، ولا يؤثِّر في ذلك وجود فتور أو انقطاع في هذا السَّبب الدّافع؛ لأنَّه سرعان ما يتجدَّد، فيبقى مع

لا يضرُّ مع دوام الأعمال الصالحة الانقطاع اليسير أو الفتور

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 38، والسمين، الدر المصون: 9/ 416، والبقاعي، نظم الدرر: 16/ 467، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 346.

(2) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 3/ 415.

تجدُّده كالدائم الَّذي لا ينقطع، بدلالة الفعل المضارع في: ﴿يَحْذَرُ﴾ و﴿وَيَرْجُواْ﴾ على التَّجدُّد والاستمرار، فهو دائم التَّجدُّد للحذر والرَّجاء؛ كلَّما غفل عنهما.

غرضُ حذف الفاعل في الفعلَيْن:

العلمُ بالفاعل لفضله ومكانته

حذف الفاعل في جملتي: ﴿يَحْذَرُ ٱلْآخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ﴾ اختصارًا للعلم به لظهور فضله وشرفه وعُلوِّ منزلته ومكانته عند الله تعالى، ولعدم طروء ما يدعو إلى ذكره والتَّصريح به، فالفاعل في كليهما ضمير مقدَّر راجع إلى الموصول في قوله: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ﴾.

بلاغةُ الحذف المتقابل في الآية:

دلالةُ المذكور الأهمِّ على المحذوف المهمِّ

في قوله: ﴿يَحْذَرُ ٱلْآخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ﴾ حذْفٌ متقابل ومتكرِّر، والتَّقدير: يحذر عذاب الله في الدُّنيا والآخرة، ويرجو رحمة ربِّه فيهما، وإنَّما حذف من الجملة الأولى (عذاب الله)؛ لدلالة الحذر عليه، وحذف منها (الدُّنيا)؛ لدلالة الآخرة عليها، وذكر الحذر من الآخرة دون الدُّنيا؛ لأنَّ عذاب الدُّنيا بالنِّسبة إلى عذاب الآخرة كالعدم، ولأنَّه لا مطمع له في الدُّنيا؛ إذ الدُّنيا ليست هَمَّهُ، إنَّما همُّه في الآخرة، وذكر في الثّانية رجاءه رحمةَ ربِّه، وحذف منها الدُّنيا والآخرة؛ لأنَّ رحمة ربِّه إذا لحقته في الدُّنيا؛ فلن تنفكَّ عنه في الآخرة، ولأنَّ رحمةَ ربِّه إذا حلَّت به؛ كانت بشارة له بألّا يلحقه شقاء أبدًا.

نكتة إضافة المولى سبحانه الرَّجاء إلى نفسه دون الحذر:

تعليمُ العبادِ الأدب مع الله تعالى في التَّعبير في كلِّ سياق بما يليق بمقامه الأسنى

ممّا يُلحظ في الآية أنَّه قال في مقام الخوف: ﴿يَحْذَرُ ٱلْآخِرَةَ﴾، فلم يجعل سبحانه الحذر من نفسِهِ أو من عذابه، فلم يقل: يحذر الله، أو يحذر عذاب الله، وفي مقام الرَّجاء أضافه إلى نفسه، حيث جعل رجاء القانت مِن رحمته سبحانه، فقال: ﴿وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ﴾، وهذا يدلُّ على أنَّ جانبَ الرَّجاء أكملُ وأليق بالله تعالى[1].

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 429.

نكتةُ تقديمِ الحذر على الرَّجاء:

ما يُخاف ويُتقى مقدَّم في الأولويات على ما يُرتَجى ويُبتَغى

نكتةُ تقديم الحذر على الرَّجاء تبرز في أنَّ ما يُخاف، ويُتَّقى مقدَّم في الأولويات على ما يُرتَجى، ويُطمَع فيه، ويُبتَغى؛ "لأنَّ النُّفوس ممّا يضرُّها أفزع، ولطلبها النَّجاة منه أسرع"[1]، ولما هو معلوم من أنَّ درءَ المفاسد مُقدَّم على جلب المصالح، أو لأنَّ الإنسان عند المواظبة على الاستقامة من القنوت والسُّجود والقيام ينكشف له في الأوَّل مقام القهر، وهو قوله: ﴿يَحۡذَرُ ٱلۡأٓخِرَةَ﴾، ثم ينكشف له بعد ذلك مقام الرَّحمة، وهو قوله: ﴿وَيَرۡجُواْ رَحۡمَةَ رَبِّهِۦٓ﴾[2]، أو لأنَّ المؤمن يغلب عليه الخوف والحذر أوَّل أمره وغالب حياته، فإذا اقترب الأجل؛ غلب عليه الرَّجاء، وبذلك يصلح له أمره كلُّه، ويكون التَّرتيب في الآية مطابقًا للواقع على الوجهين الأخيرين.

نكتة التَّعبير بـ(ال) في ﴿ٱلۡأٓخِرَةَ﴾:

تردُّد (ال) في (الآخرة) بين العهد والاستغراق

(ال) في ﴿ٱلۡأٓخِرَةَ﴾ الظاهر أنَّها للعهد، وعليه فالمقصود بالآخرة الدار الآخرة، أي: يوم القيامة، ويمكن أن تكون (ال) في ﴿ٱلۡأٓخِرَةَ﴾ للاستغراق، فتفيد عموم أجزاء يوم القيامة؛ لأنَّ العمومَ حين يكون في المفرد يكون في أجزائه، أي: يحذر كلَّ موطن من مواطن يوم القيامة، ولا يأمن إلّا بدخول الجنَّة، وهي أعظم رحمة تأتيه من ربِّه.

بلاغةُ حذف الموصوف في ﴿يَحۡذَرُ ٱلۡأٓخِرَةَ﴾:

احتمالُ الموصوف المحذوف أكثرُ من تقديرٍ

في قوله: ﴿يَحۡذَرُ ٱلۡأٓخِرَةَ﴾ حُذِفَ الموصوف، والظاهر أنَّ التَّقدير: يحذر الدار الآخرةَ؛ لكثرة ورود ذلك في القرآن، ويحتمل أن يكونَ التَّقديرُ: يحذر الحالةَ الآخرةَ الَّتي يُخْتَمُ له بها، ويلقى الله عليها، فإنَّ العِبرة بالخواتيم.

(1) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 3/ 414.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 429.

نكتةُ الجمع بين الحذر والرَّجاء:

من علامات صحَّة قلب المؤمن اعتدال ميزان الخوف والرَّجاء فيه وتغليب أحدهما في ظرفه وحينه

كلٌّ مِنَ الخوف والرَّجاء من أعمال القلوب الَّتي لا ينفكُّ عنها قلب المؤمن، فالقلب في سيره إلى الله ﷻ بمنزلة الطّائر، فالمحبَّة رأسه، والخوف والرَّجاء جناحاه، فمتى سلم الرَّأس والجناحان؛ فالطَّير جيِّد الطَّيران، ومتى قُطِعَ الرَّأس؛ مات الطّائر، ومتى عدم الجناحان؛ فهو عرضةٌ لكلِّ صائدٍ وكاسرٍ، ولكنَّ السَّلف استحبّوا أن يقوى في الصِّحة جناحُ الخوف على جناح الرَّجاء، وعند الخروج من الدُّنيا يقوى جناح الرَّجاء على جناح الخوف، وقال بعضهم: أكمل الأحوال اعتدالُ الرَّجاء والخوفِ وغلبةُ الحبِّ، فالمحبَّةُ هي المركب، والرَّجاء حادٍ، والخوف سائق، والله الموصل بمنِّه وكرمه[1]، وبهذا يُعلَم أنَّ اعتدال ميزان الخوف والرَّجاء في القلب وتغليب أحدهما في ظرفه وحينه من علامات صحَّة قلب المؤمن.

نكتةُ إضافة الرَّحمة إلى لفظ الرُّبوبيَّة:

الرَّحمة من تجلّيات الرُّبوبيَّة المنعمة

أُضيفتِ الرَّحمةُ إلى لفظ الرُّبوبيَّة دون لفظ الألوهيَّة، فقيل: ﴿وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦۗ﴾؛ لأنَّ الرَّحمة في أصلها هي من تجلّيات الرُّبوبيَّة المنعمة، وليست من تجلّيات الألوهيَّة القاهرة، وأيضًا فإنَّ المقام مقام استمالة لقلوب المعرضين عن ربِّهم، فناسب التَّعبير بلفظ الرُّبوبيَّة الَّتي تميل القلوب بما تفيض عليها من الإنعام والإكرام.

دلالةُ التَّعبير بلفظ الرَّبِّ وإضافته إلى ضمير القائل:

الرَّبُّ هو المنعم المربي والإضافة إليه إطماعٌ وتطلُّع إلى بلوغ كمال الفوز

الرَّبُّ هو المربّي جميع عباده بالتَّدبير وأصناف النِّعم، وتربيته تعالى لخلقه نوعان: عامَّة وخاصَّة، فالعامَّة: هي خلقه للمخلوقين، ورزقهم، وهدايتهم لما فيه مصالحهم، التي فيها بقاؤهم في الدُّنيا. والخاصَّة: تربيته لأوليائه، فيربّيهم بالإيمان، ويوفِّقهم له، ويكمله لهم، ويدفع عنهم الصَّوارف، والعوائق الحائلة بينهم وبينه،

(1) ابن القيم، مدارج السالكين: 2/ 188.

وحقيقتها: تربية التَّوفيق لكلِّ خير، والعصمة عن كلِّ شرٍّ، ولعلَّ هذا هو السِّرُّ في كون أكثر أدعية الأنبياء بلفظ الرَّبِّ، فإنَّ مطالبهم كلَّها داخلة تحت ربوبيَّته الخاصَّة[1]، وما في قوله: ﴿وَيَرۡجُواْ رَحۡمَةَ رَبِّهِۦۚ﴾ هو من هذه التَّربية الخاصَّة، كما أنَّ في التَّعرُّض لعنوان الربوبيَّة هنا مع الإضافة إلى ضميرِ الرّاجي إطماعًا وتطلُّعًا إلى بلوغ كمال النَّجاة من كلِّ محذور، والفوز بكلِّ مرغوب، ليس في الدُّنيا فقط، ولكن في الآخرة أيضًا، وذلك بالفوز فيها بالجنَّة والنَّجاة من النّار ومن كلِّ ما يُخافُ، ويُحذَر[2]، وفي إضافة اسم الرَّبِّ إلى ضمير الراجي أيضًا تشريفٌ له وإعلاء لقدره ورفعة لشأنه؛ لما وفَّق إليه في هذا الرَّجاء مع خِذلان غيره من أهل الكفر والإعراض.

بلاغةُ الطِّباق في التَّعبير بالحذر والرَّجاء:

في قوله: ﴿يَحۡذَرُ ٱلۡأٓخِرَةَ وَيَرۡجُواْ رَحۡمَةَ رَبِّهِۦۚ﴾ طباق إيجاب دقيق المسلك؛ إذ يُبرِز حسن المقابلة بين الجملتين، وكلاهما مطلوب، فالحذر من عذاب الآخرة يجب أن يصاحبَهُ رجاء وطمع في رحمة الله، وهي الجنَّة، فالمتقابلان هنا مطلوبان؛ لكونهما متلازمين من حيثُ إنَّ تحقيقَ أحدِهما مستلزمٌ تحقيق الآخر.

كلا المتقابلين مطلوب، وحصول كلِّ واحدٍ منهما يستلزم حصول الآخر

نكتةُ فصلِ قولِهِ: ﴿قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي﴾:

يعودُ سرُّ فصل جملة: ﴿قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي﴾ إلى كونها استئنافًا بيانيًّا[3]، مبنيًّا على تقدير سؤال أثاره وصفُ المؤمن الطّائع، فكأنَّه قيل: ما الَّذي مكَّن هذا المؤمن من أن ينقاد كلَّ هذا الانقيادِ لطاعة ربِّه؟ فكان الجواب عبر هذه الجملة الاستئنافيَّة المنطوية في مقول قولها على استفهام إنكاريٍّ موجَّه إلى المشركين المعرضين عن ربِّهم.

التَّتابعُ في إقامة الحجَّة على الكفار

ولا مانع من أن يكون سرُّ الفصل هو كون هذه الجملة توكيدًا

(1) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 39.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 245.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 348.

للإنكار في جملة: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ﴾، أو لكونها جملة إنشائية لفظًا ومعنًى، وسابقتها خبريَّة لفظًا ومعنًى[1]، فيكون بينهما كمالُ انقطاعٍ، لكن حمْلُها على الاستئناف البيانيِّ أوفقُ للنَّظم والسّياق، فيكون موقعها كموقع جملة: ﴿قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا﴾[2].

دلالةُ الأمر بـ﴿قُلْ﴾ في قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي﴾:

الأمرُ هنا دالٌّ على أهمّيَّة مقول القول ووجوب تبليغه على الفور

الأمرُ في قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي﴾ على أصله من الوجوب، والوجوب هاهنا على الفور لا على التَّراخي، أي: بمجرَّد أن تلقى الموصوفين بهذا الوصف، قل لهم: هل يستوي الَّذين يعلمون، والذين لا يعلمون، وهذا القول يقال لكلِّ واحد من هؤلاء، ويقال للنّاس عمومًا رجاء أن يؤثِّر هذا القول في أيِّ واحد من هؤلاء؛ إذا قرأه، أو سمعه، فيرجع عن غيِّه، ويعود إلى رشده.

المخاطَبُ بالأمرِ في قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي﴾:

كلُّ مَن كان على ميراث النُّبوَّة الصَّحيح له من الخطاب بهذا الأمر نصيب

المخاطَب بالأمر بـ﴿قُلْ﴾ في قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ هو المخاطَب به في قوله: ﴿قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا﴾، وهو رسول الله ﷺ، وإنَّما أورد هنا أيضًا؛ "تنبيهًا عَلى أنَّه أهمُّ"[3]، أي: إنَّ الأمرَ بالقول هنا دالٌّ على أهمّيَّة المأمور بقوله، وهو مقول القولِ، فينبغي عليك يا رسول الله أن تواجه به فورًا هؤلاء المشركين الجاحدين الذين يزعمون أنَّهم يعلمون، وهم لا يعلمون، أي: قل لهم أيُّها النَّبيُّ ذلك القول، وكلُّ من كان على ميراث النُّبوَّة الصَّحيح له من الخطاب بهذا الأمر نصيب.

بلاغة الاستفهام ونوعه وغرضه:

دورانُ الاستفهامِ في الآيـة بين الإنكار والنَّفي والتَّهكُّم

الاستفهام في قوله: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ إنكاريٌّ متضمِّن معنى النَّفي قُصد به إثباتُ عدم

(1) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 3/ 415.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 348.
(3) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 16/ 489.

المساواة بين الذين يعلمون، والذين لا يعلمون، أو يقال: هو لنفي هذه المساواة، واختيار ﴿هَلۡ﴾ الدّالَّة عَلى طلب التَّصديق تهكُّمًا بالمشركين[1] وتوبيخًا لهم على عدم تمييزهم بين الإيمان والشِّرك، فأشبه حالهم حال الَّذي لا يعلم بدهيات الأشياء.

دلالةُ التَّعبير بلفظ الاستواء:

استمرارُ نفي وقوع التَّسوية بين المتضادَّين

أصلُ (سوي) يَدُلُّ على استِقامةٍ واعتِدالٍ بين شيئَين، يُقالُ: هذا لا يُساوي كذا، أي: لا يُعادِلُهُ[2]، والتَّسويةُ: ضِدُّ المُفاضَلَة، وتأتي بمعنى العَدْلِ والإنصافِ، فيُقال: سَوَّيْتُ بين الشَّيئَين؛ إذا عَدَلت بَينهُما[3]، والمقصود في الآية: استنكارُ جعْلِ الأشياء المتضادَّة متساوية بطريق الاستفهام الإنكاري المتضمِّن معنى النَّفي.

فائدةُ التَّعبير بالفعل المضارع في ﴿هَلۡ يَسۡتَوِي﴾:

تَجدُّدُ نفي الاستواء بين الذين يعلمون والذين لا يعلمون واستمراره

فائدةُ التَّعبير بالفعل المضارع في ﴿يَسۡتَوِي﴾ الدَّلالة على استمرار نفي وقوع التَّسوية بين المتعادلين هنا، وهما الذين يعلمون، والذين لا يعلمون بأيِّ حال من الأحوال، ولا في أيِّ وقت من الأوقات، وتَجَدُّد ذلك النَّفي في كلِّ زمان.

نكتةُ التَّعبير بالاسم الموصول مع العالمين وغيرهم:

المرادُ بالموصول مع العالِمين المدحُ والثَّناء، ومع غيرهم القدحُ والإغضاء

عبَّر بالاسم الموصول مرَّتين: مرَّةً مع العالِمين، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ﴾، وهو مقتضٍ للمدح والثَّناء، ومرَّةً مع غير العالِمين، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ﴾، وهو مقتضٍ للقدح والذَّمِّ والإغضاء، وعدل في كليهما عن التَّعبير بالموصول الحرفي مع اسم الفاعل، فلم يقل: العالِمون وغير العالِمين؛ للتَّنبيه على ما تضمَّنته جملة الصِّلة بفعلها المضارع من معانٍ.

---

(1) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 16/ 489.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سوي).
(3) الأزهري، تهذيب اللغة: (سوا).

سرُّ إيثارِ التَّعبير بالفعل المضارع في جملتَي الصِّلة:

التَّجَدُّد والتَّكرار والاستمرار

أوثر التَّعبيرُ بالفعل المضارع في جملة الصِّلة؛ للدَّلالة على التَّجَدُّد والتَّكرار مع الاستمرار؛ قصدًا إلى مدح العالِمين بربِّهم بتَجَدُّد علمهم بالله والاستزادة منه، فهُم يجدِّدون علمهم بربِّهم، فيزدادون معرفةً إلى معرفةٍ وإيمانًا إلى إيمان، وعلى النَّقيض من ذلك الَّذين لا يعلمون، فإنَّهم يستزيدون باستمراء عدم علمِهم بالله، مع عِلمهم بأنَّه خالق كلِّ آثار الكون الدالَّة عليه، ثم بعنادهم واستكبارهِم يستزيدون بذلك كلِّه بُعدًا عن الله ﷻ.

فائدة تَكرار اسم الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾ مع العالِمين وغير العالِمين:

الدَّلالةُ على المغايرة التامَّة بين الذين يعلمون والذين لا يعلمون

كرَّر الموصول مع الذين لا يعلمون، ولم يكتفِ بالأوَّل؛ للدَّلالة على المغايرة التامَّة بينهم وبين الذين يعلمون، فهُم في جانب، وأولئك في جانب آخر.

بلاغةُ التَّعبير بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ﴾:

الجمعُ بين التَّشبيه والمجاز والتَّعريض مع حسن الإطناب

يجوزُ حمل التَّركيب على التَّشبيه على تقدير: كما لا يستوي العالِمون وغير العالِمين، كذلك لا يستوي القانتون والعاصون، كما يجوز أن يكون المراد بالعِلم هنا العمل الذي هو لازم العِلم، فتكون المقارنة هنا بين العاملين الطَّائعين وغيرهم من العاصين المعرضين، بتنزيل مَن يعمل، ويطيع، منزلةَ العالِم، وتنزيل مَن لا يعمل منزلةَ غير العالِم[1]، وعليه ففيه (مجاز مرسل) بإطلاق السَّبب وإرادة المسبَّب، أو بعلاقة اللُّزوم، وفي هذا التركيب تعريضٌ بمَن يعلمون، ثم لا يعملون بعلمهم، وفيه أيضًا - بالعدول عن العالِمين وغير العالِمين إلى الذين يعلمون والذين لا يعلمون - حسنُ الإطْناب؛ إذ لم يكتفِ بالقَوْل: هل يستوي العالِمون وغير العالِمين؟ من أجل هذه الفوائد السّابقة وغيرها[2].

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 117.

(2) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 16/ 489.

معنى الواو في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ﴾:

الجمع والتَّشريك في الحكم بين الفريقين بطريق المضادَّة

الواو في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ﴾ هي الواو العاطفة المقتضية للجمع بين المتعاطفين، وهو هنا جمع بطريق المضادَّة، فيستبين الفرق بينهما، فيظهر فضل ﴿ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ﴾ واستحقاقهم كلَّ ثناء، وأمّا ﴿ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ۝٩﴾؛ فيستحقون كلَّ مذمَّة ومعرَّة.

نكتةُ حذف مفعولي الفعلَيْن في ﴿يَعۡلَمُونَ﴾ و﴿لَا يَعۡلَمُونَۗ﴾:

الدَّلالةُ على شرف العِلم في ذاته من حيث هو، وقُبْحِ فقْدِهِ أو زواله

حُذِفَ مَفعول ﴿يَعۡلَمُونَ﴾ في الموضعين لإفادة التَّعميم، أو لجعْلِ الفعل مُنزَّلًا منزلة اللازم[1]، فلا يفتقر إلى مفعول؛ إذ المقصود بيان حال الفاعل من حيث كونُهُ يعلم، أو لا يعلم، كما في قوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَخۡلُقُ كَمَن لَّا يَخۡلُقُۚ﴾ [النحل: 17]، أي: هل يستوي من فيهم أهليَّة العِلم مع مَن ليسوا له أهلًا؟ وهذا يكفي في عقد المقارنة التي هي مقصد المقام، وفيه - بناءً على هذا التَّوجيه - دلالةٌ على شرف العِلم في ذاته من حيث هو، وكذلك قَبُحَ فقْدُ العلم في ذاته من حيث هو، بقطع النَّظر عن ماذا يعلمون؟ أو ماذا لا يعلمون؟.

بلاغةُ الإدماجِ في التَّعبير بالاسم الموصول:

إدماجُ الأغراضِ من وسائل الإيجاز في القرآن

في التَّعبير باسم الموصول في الجملتين المتقابلتين إدماجٌ أغنى عن ذِكر جملتين، واحدة في كلٍّ منهما، وذلك أنَّ التَّعبير بالموصول في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ﴾ أدمج فيه الثَّناء على أهل الإيمان بالعلم، وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ﴾ أدمج فيه ذمَّ الكفّار بعدم العلم، كأنَّه قال: هل يستوي الذين يعلمون، ويؤمنون، ويعملون، والذين لا يعلمون، فلا يؤمنون، ولا ويعملون، "وفي ذلك إشارةٌ إلى أنَّ الإيمان أخو العلم؛ لأنَّ كليهما نور ومعرفة حقٍّ، وأنَّ الكفر أخو الضَّلال؛ لأنَّه والضَّلال ظلمةٌ وأوهام باطلة"[2]، وهذا المعنى مُصرَّح به في مواضع

(1) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 16/ 489.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 349.

أخرى كثيرة، كقوله تعالى في حقِّ المؤمنين: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾ [آل عمران: 18]، وقوله: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: 28]، وقوله في حقِّ الكافرين: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّيٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [الزمر: 64].

بلاغةُ الكناية في نفي استواء العالم وغير العالم:

التَّعبيرُ بنفي الاستواء بين العالِم وغير العالِم كنايةٌ عن إثبات الفضل للعالِم

في التَّعبير بنفي الاستواء - بين الذين يعلمون، والَّذين لا يعلمون - كنايةٌ عن إثبات الفضل للَّذين يعلمون مطلقًا وعلى وجه العموم، فإنَّك ما تأمَّلت مقامًا اقتحم فيه عالِم وغير عالِم، إلّا وجدت للعالم فيه من المزيَّة والتَّفوُّق والسَّعادة بالعلم ما لا تجده لغيره[1].

بلاغةُ الطِّباق بين الذين يعلمون والذين لا يعلمون:

طباقُ السَّلب هنا يبرز فضل العالِمين وتدنّي غير العالِمين

في قوله تعالى: ﴿هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ طباق سلب؛ إذ قابل بين: ﴿ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾، وفي ذلك لفتٌ لانتباه السّامع إلى شناعة ما عليه غير العالِمين حينما وُضِعوا في كفَّة، ووُضع العالِمون في الكفَّة الأخرى، فأين يميل لسان الميزان؟.

نكتةُ فصل قوله: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾:

عدمُ العلمِ بالله مسبَّب عن عدم إعمال العقلِ

بينَ هذه الجملةِ وما قبلها شبهُ كمال اتِّصال، فهي تعليل للإنكار الذي هو بمعنى الانتفاء بأنَّ سببَ عدم علمهم بالحقِّ أنَّهم ليسوا أهلًا للتَّذكُّر؛ لأنَّ التَّذكُّر من شعار أولي الألباب؛ إذ مدار التَّذكُّر الَّذي به الصَّلاح والفساد هو القلب؛ لأنَّه مركز العقل الَّذي هو آلة العلم، ولأنَّ القلبَ الَّذي لا يحمل على الصَّلاح عدمٌ أو كالعدم، بل العدم خير منه، قال: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ﴾، فيعلم أنَّ المحسن لا يرضى بالإحسان إلى مَن يأكل خيره، ويعبد غيره[2]، أي: لا يتذكَّر إلّا أولو الألباب.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 349.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 468.

بلاغةُ القصر ونوعه وغرضه:

القصر بـ"إنَّما" دالٌّ على أنَّ التَّذكُّر والاتِّعاظ والاعتبار إنَّما هو مقصور على أولي الألباب وحدهم دون غيرهم، فهو قصر صفةٍ على موصوف، والمراد بأولي الألباب أصحابُ العقول السَّليمة النافعة، فهُم وحدهم الذين يتذكَّرون، ويعتبرون بدلائل الحقِّ الهادية إلى الطُّرق القويمة.

الانتفاع بالدَّلائل مسبَّب عن إعمال العقول

دلالةُ التَّعبير بالفعل المضارع ﴿يَتَذَكَّرُ﴾:

والتَّعبير بالتَّذكُّر هنا، وإيثاره على التَّفكُّر ونحوه؛ لما له من دلالة على ما هو من طبع كلِّ إنسان في كونه قابلًا لأن تعتريَهُ الغفلة أو النِّسيان في بعض الأحيان، ولا ضير على أولي الألباب في هذا؛ لأنَّ هذا العارض معهم لا يطول، بل سريعًا ما يزول؛ لكونهم سرعان ما يتذكَّرون، وينتبهون، فيُذَكِّرون أنفسهم، ويراجعونها حتى لا تركن إلى الغفلة، وهذا من دواعي كونِهم منتفعين بنعمة العقل الَّتي منحهم الله إيّاها، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ ٢٠١﴾ [الأعراف: 201].

أولو الألباب لا يغفلون، وإن غفلوا؛ فسريعًا ما يتذكَّرون، فيعودون

وفيه تعريضٌ بالمشركين الغافلين أبدًا، بأنَّهم ليسوا أهلًا للتَّذكُّر، فعقولهم بما سيطر عليها من داعي الغفلة والهوى والجحود والعناد، قد حجبت عن أن تعِظ صاحبها، فتذكِّرَه.

سرُّ اختيار ﴿يَتَذَكَّرُ﴾ دون (يذَّكَّرُ)، كما في قوله: ﴿وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٥٢﴾:

التَّعبيرُ هنا بالفعل ﴿يَتَذَكَّرُ﴾ دالٌّ على تمام معنى التَّذكُّر وعِظَمِه بدلالة تمام معنى الفعل دون حذف أو إدغام، وهذا ما أشار إليه البقاعيُّ في قوله: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ﴾، أي: تذكُّرًا عظيمًا بما أفهمه إظهار التاء[1].

الفعلُ (يَتَذَكَّرُ) دالٌّ على العِظَمِ والكمال بما دَلَّ عليه تمام الفعل

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 468.

سرُّ التَّعبير بـ ﴿أُوْلُواْ﴾ دون (أصحاب) في قوله تعالى: ﴿أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾:

لا يقال صاحب إلّا باعتبار الملازمة

إنَّما عبَّر بـ ﴿أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ دون (أصحاب الألباب)؛ لأنَّ الصّاحب هو الملازم للشَّيء، إنسانًا كان، أو حيوانًا، أو مكانًا، أو زمانًا[1]، ومِن ثَمَّ فإن لم تكن ملازمة؛ فلا يقال لها: صحبة، ولذلك قيل عن المؤمنين حال كونهم ملازمين الجنَّة في الآخرة، خالدين فيها: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ﴾ [البقرة: 82]، كما في قوله سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [البقرة: 82]، وقيل عن الكافرين: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: 39]، ومنه قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [البقرة: 39]، أمّا العقول والألباب وسائر ما لا يلازم صاحبه، بل تعتريه المفارقة له قليلًا أو كثيرًا، فلا يقال له: صاحب، كما في التَّعبير بأولي الألباب، ومنه أيضًا قوله تعالى: ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: 4]، فالمرأة لا تلازم الحمل أبدًا.

نكتةُ حذف مفعول التَّذكُّر:

الحذفُ إمّا لقصد التَّعميم أو لإنزال الفعل (تذكَّر) منزلةَ الفعل اللازم

حذف مفعول التَّذكُّر في قوله: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ إمّا للتَّعميم، وإمّا للاكتفاء بالنَّصِّ على كونهم يتذكَّرون، ويتَّعظون؛ لأنَّه المقصود والأهمُّ، فلا تكون هناك حاجة إلى ذكر مفعول، ويتنزَّل الفعل (تذكَّر) في هذه الحالة منزلةَ الفعل اللازم الذي يكتفي بفاعله.

بلاغةُ التَّعبير بالألباب دون غيرها:

مناسبةُ اللَّفظ للسّياق

إنَّما كان التَّعبير هنا باللُّبِّ الذي هو خلاصة الشَّيء دون غيره من الألفاظ لمناسبة السياق؛ لأنَّ السياق للإخلاص، واللُّبُّ خالصُ كلِّ شيءٍ[2].

(1) الراغب، المفردات، ص: 457.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 469.

سرُّ مجيءِ (ال) في ﴿ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾:

إفادة (ال) أكثر من معنى

(ال) في ﴿ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ قد تكون للجنس، أي: جنس العقول الزّاكية والقلوب النَّقيَّة التي ينتفع بها أصحابها، كما يحتمل أن تكون للاستغراق؛ لأنَّ كلمة ﴿أُوْلُواْ﴾ لمّا أُضيفت إلى ﴿ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾، وهي معرفة؛ أفادَتِ العموم والشُّمول؛ أيْ: كلُّ أولي الألباب.

نكتة التَّعبير باللُّب دون غيره:

اللـبُّ خلاصة الشيء وعُصارته

آثر السياق الحكيم التعبير باللب دون غيره كالعقل والفهم، وفي ذلك يقول الإمام البقاعي رحمه الله: "وما أَحْسَنَ التَّعْبيرَ هُنا بِاللُّبِّ؛ الَّذي هو خُلاصَةُ الشَّيْءِ! لِأَنَّ السّياقَ لِلْإِخْلاصِ"[1].

نكتة التَّعبير بأولي الألباب بصيغة الجمع:

القلوبُ المؤمنةُ القانتة والعقول الواعية المتنبّهة تجتمع على الحق دائمًا

لم يرد في القرآن الكريم هذا التَّعبير ﴿أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ إلّا مجموعًا،؛ إذ لم يذكر مفرده، وهو (لُبّ) أبدًا؛ وذلك لاستثقاله، ومعهود القرآن أنَّه يستغني عن المفرد بالجمع أو عن الجمع بالمفرد؛ إذ كان أحدهما ثقيلًا، فمن الأوَّل استغناؤه بـ(الألباب) عن مفرده الثَّقيل، وهو (لُبٌّ)، وذلك في كلِّ مواضع وروده في القرآن الكريم، ومن الثاني استغناؤه عن الأرضين، وهو جمع مستثقل بمفرده، وهو الأرض، كما في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ وَمِنَ ٱلۡأَرۡضِ مِثۡلَهُنَّۖ﴾ [الطلاق: 12].

وأيضًا يُلمح من جمع لفظ (الألباب) أنَّ الرَّأي الحكيم الصّائب الذي ينتجه عقلُ لبيبٍ إنَّما تتَّفق عليه، وتقبله، وتثمِّنه سائر العقول الزاكية الراقية الَّتي هي الألباب، فيكون الرأيُ مع صدوره عن لبيب واحد كأنَّما صدر عن عدد كبير من أولي الألباب.

فائدة الجملة الخبريَّة ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾:

في ختم الآية بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ تنويهٌ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 469.

تنويهٌ بشأن المؤمنين وتعريض بالمشركين واتِّهام لهم بالخفَّة والغفلة

بشأن المؤمنين الذين أعانتهم عقولهم لبلوغ الحقِّ، فعرفوا الله، وآمنوا به، وأذعنوا لأوامره، واجتنبوا نواهيه، وفي المقابل فيه تعريضٌ بالمشركين واتِّهام لهم بالخفَّة والغفلة، وأنَّهم ليسوا من أصحاب العقول الفاعلة المبصرة.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الخمسون،
سورة الزُّمر من الآية 05 إلى الآية 72
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الخمسون، سورة الزُّمر من الآية 05 إلى الآية 72
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 50 ، 822 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-643-81-4
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 50 : المجلد الخمسون، سورة الزُّمر من الآية 05 إلى الآية 72.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-643-81-4
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-1291842 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»